مبدأ قوة الحياة

في فلسفة برنارد شو

من كهوف التشاؤم الى رحب التفاؤل في مصير الانسان

« يجب ان تعيشوا حتى اذا ما كانت
الحياة بل قوة الحياة مدينة لكم »

يبدو لكل من يتتبع أقوال برنارد شو وكتاباته انهُ لا يقتنع بان يكون مؤلفاً مسرحيًّا . ومن الخطإ الفاضح في فهم الرجل أن نحسبهُ كاتب روايات تمثيلية لاغير . فتدكان برنارد شو من نشأته مصلحاً متحمساً . وهذا لا يقتضي عنايتهُ بالفلسفة فقط بل ينطوي على محاولته أن يكون فيلسوفاً . والمرجح ان الذين يحصرون معنى الفلسفة في حدود ضيقة ، ينكرون علينا وضع برنارد شو في مصاف الفلاسفة . وهؤلاء على صواب ان اقتنعنا معهم بان الفلسفة المدرسية هي الفلسفة كلها . ولكن اذا توسعنا في فهم معنى « الفلسفة » على انها كلُّ محاولة لوضع طريقة عملية غرضها ترقية وسائل الحياة فبرنارد شو فيلسوف قحّ

ولا اعلم طريقة لفهم الفلسفة الشاقية (نسبة الى شو) أبلغ من درس مبدإ « قوة الحياة ». ويجدر بنا أن نفهم نشأة هذه الفلسفة قبل تحليل عناصرها . ولقد يكون من أغرب غرائب الاتفاق في الحياة أن تكون فلسفة شو هذه قد بلغت ذروتها في الدرامة التي اجمع النقاد على انها اجل صورة لفنون عبقريته . ونقصد تلك الدرامة العظيمة — بل احدى الدرامات العظيمة النادرة التي انجبها القرن العشرون — « مان وسوبرمان » أي « الانسان وما فوق الانسان ». فالروايات التي تتقدم « مان وسوبرمان » ليست الاّ سلسلة من المحاولات والتجارب. فكأنهُ يحاول بها أن يتعرف الارض التي يسير فيها ويتخير الطريق . لقد مرَّ في طور قلَّد فيه ايبسن ، وخرج منهُ واثقاً ان في فلسفة ايبسن — الفائلة باننا لا نعرف طريقاً تفضي بنا الى السعادة، بل ان كل الطرق تبعدنا عنها — شيئاً كثيراً مما يستحق العناية والدرس. على ان شو لم يقنع في حياته قط بموقف متشائم كهذا . وعليه لا بدَّ من ان نتصور تصوراً سلسلة افكاره التي حدت به الى كتابة « مان وسوبرمان » . قال : اذا كان الانسان لا يستطيع ان يجد طريقاً تفضي به الى السعادة او ان يجتنب طريقاً توصلهُ الى الشقاء ، فليس أمامهُ الاّ الاعتصام بحبل الشجاعة. ولا بدَّ لهُ من ان يجد طريقاً اخرى . فشو لا يسلّم

جورج برنارد شو في أحدث صورة لهُ

مقتطف | كنون ١٩٣١ إمام الصفحة ١٣٥

قط بالتحالف مع افلاسفة الفانطين المتشائمين ، الذين انما عاشوا ليبرهنوا على أن الموت هو النهاية الوحيدة المرجوة للحياة. وهو كذلك لايرفع صوتهُ ، كما فعل توماس هاردى ، في ساعة قنوطهِ من الحصول على السعادة ، غاضباً حانقاً على الآلهة . ولكن بدلاً من كل هذا يخطر لهُ فكر طارئ . إذا كان الانسان لايستطيع أن يجتنب الشقاء . أو إذا كان لايستطيع الوصول الى السعادة ، فالحل الوحيد هو الثورة على فلسفةٍ معقولة من وراء هذا التشاؤم الظاهر . لابدَّ للانسان من أن ينظر الى المسألة من وجهة أخرى . وعليهِ ألاَّ يكتفي بالتسليم بتحتم البؤس والشقاء ، عليهِ ألاَّ يقنع باعتقادٍ ، يهم في صميمهِ « العناية » بالجور. ليحسب نفسهُ محاولة واحدة من محاولات الطبيعة . ليتبر انهُ سوف يكون ضحية ترتقي عليها الاجيال المقبلة ، معتبرة باخطائهِ ، متعلمة الحكمة من شقائهِ وحقدهِ

وهكذا يمضي شو ، في رفق وخفة لمسٍ ، من تشاؤم لايفضي الاَّ الى القنوط ، ثم يخلع عن منكبيهِ معطف ابسن ، فتنفجر قواهُ المبدعة في درامة « مان وسوپرمان » . في هذه الدرامة ، يلمُّ شو كل خيوط معتقداتهِ الفلسفية ، وينسج منها ثوباً فلسفيًّا ، سداهُ ولحمتهُ ، قوة الحياة

وفلسفة « قوة الحياة » فلسفة معقدة ، يتعذر بسطها في مقال قصير ، إلاَّ بتتبعنا لفصول الرواية ونشوء الفكرة فيها من مشهد الى مشهد ، ومن فصل الى آخر . ومما يجدر بنا الاشارة اليهِ هنا ، ان شو يعتقد ان المرأة في مسائل الزواج — هي التي تجدُّ في طلب الرجل — وهذا اسلوب برَّاق يقول بهِ شو ان « قوة الحياة » تستخدم المرأة لتخليد النوع . وهذه النظرة هي اساس القصة في الدرامة التي بين ايدينا

والحديث الذي يفضي بشو الى ابداع « فلسفة قوة الحياة » ينشأ من تبرّمهِ . فها هو ذا ينظر الى الحياة فلا يرضى عما فيها . ففي كل ناحية يرى الحياة تسرف في انفاق الحياة من دون طائل . فهو يرى في الجهة الواحدة ، كلَّ الممكنات العظيمة التي تنطوي عليها طبيعة الانسان — اليس الانسان مخلوقاً في صورة الله ، آلة معقدة ، تملك في صميمها ، القوى الجسدية والعقلية والروحية ، التي لاتحدُّ — وفي ميدان الخيال يلتقي شو بالشاعر ، فينطق بلسانهِ ... « ما أعجب الانسان » ثم تنتابهُ الكآبة الشافية لحظةً فيقول ... « نعم ولكن ما أكثر اخطاءهُ »

ولكن اذا كان الانسان كثير الاخطاء ، فماذا نقول في الاله ؟ ماذا نقول في « قوة الحياة » التي خلقت الانسان ؟ أن شو لايردُّ عن هذين السؤالين . ولكن فلسفة « قوة الحياة » هي ردُّهُ البليغ

ويمكن العثور على خلاصة هذه الفلسفة في الحوار الدائر بين دُن جوان والشيطان .

لدن جوان يسلّم من البدء بان الحياة كفاح ولكنهُ لا يسلّم بان الكفاح مجرَّد من الامل بالنصر. فهي كفاح الغرض منهُ الاتجاهُ الى فوق. يبدأ قولهُ بان الانسان اكبر أملاً في فهم اغراض الحياة ومرادها، من الوحوش، لانه أذكى منها. خذ مثلاً الاجساد التي كانت في عصرها اضخم من الانسان — الجاثيريوم والاكثيوتورس — وثانيهما كان يستطيع ان يجتاز سبعة فراسخ في قفزة واحدة — ما كان مصيرها؟ انها ليست اكثر من آثار متحجرة في المتحفات. هذه الحيوانات الضخمة الحيارة — بقوتها الجسدية العظيمة — وشهوتها الملحة للحياة — ورغبتها في عمل عمل تكتسب به رضا الحياة — قد بادت كلها ولم يبق منها الا آثار! وما السبب في ذلك؟ ان دن جوان يردُّ على مسائله هذه ردًّا بسيطاً يتصف به عادة المفكر السطحيُّ فيقول: لقد بادت كلها لانها لم تملك ادمغة كافية لتعلمها كيف تعيش. وهكذا قضت هذه الحيوانات على نفسها، سواء شاءت ذلك ام لم تشأ.

هكذا يبدأ الحوار في موضوع «قوة الحياة». وإلى هنا، يستطيع الانسان، بفضل دماغه الكبير وعقله، ان يفهم المغزى ويطبقهُ. ولكننا هنا نقط نجد سرَّ الموقف الذي يقفهُ شو. نسلّم بأن للانسان ذكاء اسمى من ذكاء الحيوانات. ولنسلّم بأن الحيوانات التي كانت قوتها الجسدية اعظم جدًّا من قوة الانسان قد انقرضت. ولنسلّم كذلك بأن قوة الحياة تستعمل الانسان لتجربة تجاربها به، لانهُ يتعلم في المستقبل، غاية «قوة الحياة» وهدفها — فاذا سلّمنا بكل ذلك تلنا الى هنا تنتهي فلسفة شو!

كلاّ، هنا تبتدئ فلسفته

ويردُّ الشيطان على دعوى «دن جوان» بأن الانسان أصلح لفهم اغراض الحياة، بسبب دماغه فيقول: إذا صحَّ ان للانسان دماغاً، كما تقول يا دن جوان، فهل هذا الدماغ يعصمهُ من إبادة نوعه، كما فعل فقد الدماغ في الحيوانات الابدية التي أبادت نفسها. تعال معي فأخبرك بما رأيت في رحلة حديثة الى الارض

هنا نصل الى التهمة التي يوجهها شو الى الطريقة التي يجري عليها الانسان في استخدام عقله، فيشوّه اغراض قوة الحياة تشويهاً

والتهمة الاولى الموجهة الى الانسان لا تقوم على انهُ لا يستعمل عقلهُ، بل تقوم على انهُ يستعملهُ في فن التدمير. في فن الحياة لا يخترع الانسان شيئاً واما في فن الموت فيخترع كل شيء. انهُ يستخدم نبوغهُ للتفنن في إثارة الحروب. ولكنهُ يمتنع عن استخدامه للارتقاء في تصوير الصور وكتابة الكتب وابداع الموسيقى. انهُ لم يرتقِ الا في ميدان التخريب. انهُ لم يتقدم في وسائل التغذية بل هو يأكل ويشرب ما كان يأكلهُ اسلافهُ ويشربونهُ من ألف

هنريك ابسن

١٨٢٨ — ١٩٠٦

شاعر ومؤلف مسرحي نروجي تأثر به شو في مطلع حياته كمؤلف مسرحي

مقتطف اكتوبر ١٩٣١ امام الصفحة ١٣٧

سنة . ثم يقول شو، وعلى القول سخة من السخرية، يأكل الانسان ويؤلف ويطرب كما كان اسلافهُ يأكلون ويشربون ويطربون من الف سنة ، ولكنه اذا خرج ليحارب اعداءه، لن يستطيع احدٌ أن يتتبع سرعة ابداعه وارتقائه في بناء ادوات التدمير

وهكذا تتبع رقعة التهم بأن الانسان يسيء استعمال عقله : ففي المصانع آلات في استطاعة كلب بارع ان يستعملها . آلاتهُ الطابعة ، ودراجاتهُ ، وما كناتهُ — ادوات تنطوي على براعة وإبداع. ولكنهما لا يذكران ازاء الابداع والبراعة، المتجليين في مدفع مكسيم ، وطربيد الغواصة ، والقنبلة الشديدة الانفجار ، والبندقية السريعة الانطلاق

هنا نصل الى المأزق في الدراما ! وإذ يتوقف الشيطان قليلاً في توجيه التهم يلتفت الى دُن جوان ويقول : ان قوة الحياة التي تفاخر بها — وهذا النشاط العجيب الذي يبدو في اعمال الانسان ،وتلك المبتكرات من دماغه ، ما كانت نتيجتها ؟ ليست قوة الحياة الا قوة الموت ، لا اكثر ولا اقل . ان الانسان يقيس قوتهُ بمقياس غريب ، ولا يحسبها قوة الا اذا كانت مدمّرة . هنا يتحول التنديد بآلات الانسان المدمرة ، الى بحث نفسي عميق . فيبرهن شو بلسان شيطانه ان كل الوسائل التي يقصد بها تحسين النوع ، ليست الا قناعاً لاعمال التدمير . ثم يتمادى في تنديده بالانسان الكثير الاخطاء — بريائه ، وسعيه وراء اغراضه الخاصة ، وامتناعه عن الاصغاء الى الدعوة التي توجهها « قوة الحياة » وإصراره على التقدم في دائرة ، وعناده في تجاهل الورطة التي يخنقها بيديه

ولكن وتر التفاؤل، في الحوار ، ابداً وتر حساس . فالانسان لا يزال في طور التجربة

لنعد الآن الى بعض التهم الاخرى الموجهة الى الانسان ! ما دياثة الانسان — يقول الشيطان هي ليست شيئاً قائماً على التسليم بقوة عليا . ولا علاقة لها قط ، برعاية الانسان للانسان. إن هي الا عذرٌ يتذرع به الانسان عن بغضه للشيطان . وهكذا يجيب الشيطان نفسه في الحوار فيقول : « ليست دياثة الانسان الا عذراً لكرهي »

وما شرائع الانسان ؟ انها ليست قائمة على الرغبة في العدل . ولا على رغبة في الاصلاح. إن هي الا عذر يمهد الانسان ، التمادي في شهوته للتدمير . فالانسان يطلق الانسان ثم يأتي بالشرائع لتسويغ ما فعل . وهكذا يمضي الشيطان في توجيه التهم . فلم يبق للانسان شيئاً يرتكز عليه . ما آدابهُ ؟ نظام من القواعد غرضها المحافظة على اللياقة الاجتماعية . وما فنهُ ؟ عذرٌ للتمتع بالتحديق الى صور القبح !

الى هنا ، يبدو لنا ان شو راسخ الاعتقاد بأن الانسان قد احلَّ قوة الموت محلَّ قوة الحياة ، وانهُ يرى الانسان منفقاً كل قواه في عبادة الموت ، مريقاً قوى الحياة ،لا دمعة ولا

حسرة عليها . وفي خطاب الشيطان فقرة بسيطة ، ولكنها بليغة في وصف هذا الميل ، تتلها فيما يلي ، لا لما تنطوي عليها من المشكلة الاجتماعية ، ولكن لأن الحادثة في نظر شو ، هي منتهى ما ينتظر من عبادتنا للموت ، بدلاً من عبادتنا للحياة ، يقول الشيطان : —

رأيت رجلاً يموت . كان بناء طوب لندنيًّا ذا سبعة اولاد . فترك سبعة عشر جنيهاً موفرة في ناديه . فأنفقتها زوجته كلها في مأتمه ، ثم ذهبت مع اولادها الى ملجإ . ما كانت تنفق سبع بنسات على تعليم اطفالها . فحكم عليها ان تعلمهم تعليماً مجانيًّا . ولكنها انفقت كل ما تملك على الموت . ان خيال — هؤلاء الناس ، ليلتهب ، وقوام لتنشط عند التفكير بالموت — انهم مجبولة . وما هو اشد فظاعة من ذلك ، انهم يسرون به

فكيف التفت الى حياة الانسان وجدت تمجيداً للموت والتدمير . خذ مثلاً الآداب . فأكثر الاساليب الفنية في آداب الامم هي المأساة ، الرواية التي يقتل كل شخص في نهايتها . وقد بلغ من شدة تهافتنا على تقدير عظمة الانسان اننا اصبحنا في خطر من حسبان قدرته على التدمير مثال العظمة المجيد . ماذا نقرأ في الاسفار القديمة ؟ نقرأ عن زلازل وأعاصير واوبئة ، ومنها نخرج بقوة الله وعظمته ، وضعف الانسان وحقارته . اما الآن فاننا نقف على نقيض هذا . نرى جماعة من الناس تفتك بغيرها وتدمر بلادها . فنستنتج ان الفاتحين المنتصرين عظام ، وان المغلوبين المقهورين حقيرون

الى حدّ هنا قدمنا امثلة من البراهين والتهم التي انهال بها الشيطان على دن جوان ، مبيناً ان القوة المسيطرة على الارض ليست قوة الحياة بل قوة الموت . وهكذا نصل الى ذروة الاتهام ، اذ يقول انهُ لما عجزت الطبيعة عن استنباط وسائل وادوات كافية للتدمير ، استسلت الانسان حليفاً لها ، وجعلته يستنبط هذه الادوات

هذا هي دعوى الشيطان . وهي مزعزعة للانسانية ، ولكنها ليست حكماً نهائيًّا . فان شو ، بالبراعة التي يتصف بها كل محاور ماهر ، يصور الصورة بأتم الالوان ، حتى اذا بدا طيف التفاؤل بدا لامعاً براقاً . فاننا اذا سلمنا ان الانسان قد اساء فهم اغراض الحياة افظع اساءة ، فليس ثمة سبب للقنوط . إذ لا نهاية للتجارب التي تجربها الحياة بالانسان

وإذ ينتهي الشيطان من كلامه ينقدم «دن جوان» للدفاع فيقول: لا يبدأ الانسان بكل ضروب الهجم التي تنهال عليه ، ما دام لا يدعى « حياناً ». وبالتغلب على «الخين» يبدأ الانسان يرى قبساً من غرض الحياة الصحيح . والانسان لن يتغلب على الخوف ، الاّ إذ تصوّر انهُ يكافح في سبيل غرض كوني — اي متى تحقق ان شخصهُ ليس غرض الحياة النهائي بنفسه ، وانهُ ليس سوى مفسّر لرغبات الحياة . فاذا قلّل من التفكير بنفسه ، اصبح اقدر على

استجلاء ما تريده « قوة الحياة » ان يفعل

وفلسفة قوة الحياة ، التي يقول برنارد شو ، تنضي بنا ، الى الصورة التي يرسمها السوبرمان . ان شو لا يحدد لنا اوصاف السوبرمان . فقد يكون شبيهاً بسوبرمان الفيلسوف نيتشه . ولكن لما كان رجل نيتشه ، غير روحي في صميمه ، فالراجح انهُ يختلف كلَّ الاختلاف عن رجل شو ، على ما يبدو لنا من صفاته ، في خلال الاحاديث التي تفضي الى خلقه

ولنلخص الآن مبدأ قوة الحياة في فلسفة برنارد شو . ان ميدان الانسان فهم رغبات « قوة الحياة » التي تسيطر عليه وتحكمهُ . وقوة الحياة تجرب التجارب بالانسان ، لانها تريدهُ ان يتعلم بالاختبار ، فهي لا تستعمله استعمال دمية او بوق . ولقوة الحياة مُثُلٌ عليا تحاول ان تحققها ، ولكن الانسان يفشل في تحقيقها مرة واخرى . وبعد تجارب عديدة متوالية يتعلم الحكماء فيدرك رغبات قوة الحياة ، ويخضع لها ، وهكذا يصبح انساناً اعلى في سلم الارتقاء من سلفه — اي انهُ يصبح سوبرمان . وهكذا يصحُّ ان نضع برنارد شو في مصاف الفلاسفة المتفائلين رغم ما يبدو في نقده اللاذع للاجتماع ، لانهُ يعتقد ان الانسان يملك القوة الكافية ، التي تستطيع ان تنشئ منه الرجل المتم لارادة قوة الحياة على الوجه الاكمل

وقد لخصت لدائرة المعارف البريطانية في طبعتها الاخيرة عقيدة برنارد شو المتقدمة فيما ترجمتهُ :

الانهُ او قوة الحياة قوة غير كاملة تسعى الى الكمال . فلو انها كانت عالمة بكل شيء وقادرة على كل شيء لما صحت بوجود نقائص في خلائقها . كما لا يصح والد باصابة ابنائه بالامراض اذا كان يستطيع ان يمنع ذلك — وقد شغلت هذه القوة ما مضى من الزمن في محاولتها خلق ادوات تساعدها في سعيها لبلوغ الكمال . فلما وجدت ان هذه الادوات لا تمكنها من تحقيق الغرض بغيتها . بهذا تستطيع ان تعلل اندثار جبارة العصور الغابرة من الحيوانات . ذلك ان قوة الحياة وجدتها غير قادرة على ادراك غرضها ، وعلى الانفلات من قيود بيئتها وبنائها الجسماني . فخلقت اداة جديدة اسمها الانسان — وهذه الاداة لا تزال في دور التجربة . وعليه يحذر شو الانسان بانهُ اذا خاب في تحقيق غرض قوة الحياة صائت نوعاً به ونبذتهُ كما نبذت « الموت » من قبله . ويلخص هذه العقيدة في قوله « يجب ان تعيشوا حتى اذا تم كانت الحياة ، بل كانت قوة الحياة مدينة لكم »

وقد ولد جورج برنارد شو في دبلن عاصمة ارلندا في ٢٦ يوليو سنة ١٨٥٦ فبلغ الخامسة والسبعين في الصيف الماضي ومنح جائزة نوبل سنة ١٩٢٦ فوهب قيمة الجائزة فوراً — وهي نحو ٧٠٠٠ جنيه — الى المؤسسة الانكليزية السويدية لتنفقها في اذاعة الادب السويدي — والسويد وطن نوبل صاحب الجوائز المعروفة باسمه — في البلدان الناطقة بالانكليزية